

التقوى والأخلاق



«دعا القرآن إلى تقوى الله وإصلاح ذات البين، حيث تخاصم بعض المؤمنين على غنائم الحرب في بدر، فقالوا بملكية الغنائم استناداً إلى قوله تعالى: (فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالاً طَيِّباً) (الأنفال / 69)، فنزلت الآية التالية لتقرر ملكة الأنفال (الغنائم) والرسول وتنهيه عن التخاصم والتشاجر، فلمّا انقطع بذلك تخاصمهم أرجع النبي (ص) إليهم، وقسمها بينهم بالسوية (يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ [1] قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَأَتَقُوا اللَّهَ وَأَصْلَحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ) (الأنفال / 1)، فالدعوة إلى تقوى الله واضحة في موارد الخصومة والشجار، والواقع أنّ لا شيء يحل مشاكل التنازع والتخاصم غير تقوى الله ومخافته وخشيته سبحانه وتعالى.. فتوبيخ بعض المؤمنين الذين لا يراعون حرمة الله يمكن أن يكون نافذاً بذكر قوله تعالى: (اتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ) (المائدة / 112)، كما قال عيسى ابن مريم للحواريين حين اقترحوا عليه أن يريهم آية خاصة، كأن ينزل الله عليهم مائدة من السماء مع علمهم بمعجزات السيد المسيح (ع): (أَخْلَقُ لَكُمْ مِنَ الطَّيْنِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ...) (آل عمران / 49)، فقال الله تعالى في هذا الشأن: (إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنْزِلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ) (المائدة 112).

(وَأَمُّمُ أَهْلِكَ بِالصَّلَاةِ وَأَصْلَحَ عَمَلَيْهِمْ لَا تَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَعَابِقُ لِلْظَّالِمِينَ) (طه / 132)، الآية الكريمة أمرٌ واضح بإقامة الصلاة وبالدعوة لها وخاصة دعوة الأقربين إليها والتفكير في الله، وفي رواية إن آية (وَأَمُّمُ أَهْلِكَ بِالصَّلَاةِ) عندما نزلت كان النبي (ص) يجيء إلى باب علي وفاطمة (عليهما السلام) مدة ثمانية أشهر) فيأخذ بعضادتي الباب بسكون ثم يقول: السلام عليكم أهل البيت ورحمة الله وبركاته، الصلاة يرحمكم الله إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا. وربط الأمر الإلهي بالصلاة والصبر عليها، فيها التفاتة كريمة وهي أن إقامة الصلاة تكون أحياناً مقرونة بمعاناة أو شدة أو ضيق، ولذلك فإن الأمر الإلهي مصحوب بالصبر على الصلاة، ولذلك كان النبي (ص) إذا نزلت بأهله شدة أو ضيق أمرهم بالصلاة ويتلو قوله تعالى: (وَأَمُّمُ أَهْلِكَ بِالصَّلَاةِ وَأَصْلَحَ عَمَلَيْهِمْ) (طه / 132).. وبالتأكيد فإن العاقبة الكريمة للمتقين أولئك الذين يقيمون الصلاة ويصبرون عليها، أولئك الذين لا تملّ شفاهم من ذكر الله سبحانه حيث الرجوع إليه، والحساب بيده، والجزاء بيده (وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا زَكَاةً وَهُوَ السَّكِينُ إِلَيْهِ تَحْشَرُونَ) (الأنعام / 72). إن حدث القرآن الكريم على إقامة الصلاة وتثبيت التقوى في نفس الإنسان المؤمن دليل على أن الاستعداد للوقوف أمام الخالق سبحانه وتعالى يوم الحشر لا يكتمل إلا بإنجاز ما يأمرنا الله به، وإقامة الصلاة معناها

إقامة الدين، وتقوى الله معناه الارتفاع عن كل ما يعصى أمر الله سبحانه، وإنجاز هذين العاملين يستطيع الإنسان أن يقف يوم القيامة، ولديه رصيد أمام الله رب العالمين..

وهدد القرآن الكريم على مفهوم الصبر، واعتبر أن الصبر بشرى للإنسان المؤمن باعتبار أن الله هو الذي يقوى هذا الإنسان في صبره (وَالصَّابِرِينَ وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابُوا مَكْرَهًا سَدُّوا عَنْهُ وَالَّذِينَ إِذَا ضَلُّوا لَمْ يَلْحَظُوا سَبِيلًا وَلَئِنْ أَمْرًا لَقَدْ جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَلَئِنْ أَمْرًا لَقَدْ جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ) (النحل/ 127-128).

ودعا القرآن الكريم إلى التعاون على أساس البر والتقوى، وهو العمل الصالح المختلط بالإيمان وتقوى الله، ونهى عن الاجتماع على الإثم والعدوان والتعدّي على حقوق الناس، فقال تعالى: (وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ) (المائدة/ 2)، وهذا هو الأساس في الأخلاق الإسلامية، حيث فسر الله سبحانه البر في كلامه بالإيمان والإحسان في العبادات والمعاملات، كما قال تعالى: (وَلَكِنَّ اللَّهَ الْبَرُّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ) (البقرة/ 177)، ثم أكد الله سبحانه نهيه عن الاجتماع على الإثم والعدوان بقوله: (وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ) (المائدة/ 2)..

ويستمر القرآن الكريم في حديثه عن التقوى والمتّقين فيتطرق إلى (النجوى).. (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلَا تَنَاجَوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ) (المجادلة/ 9)، حيث أشاعت مجموعة من المنافقين والذين في قلوبهم مرض من المؤمنين بينهم النجوى مجادة للرسول (ص)، وقد أكثر هؤلاء السؤال على النبي (ص) حتى شقوا عليه، فأمرهم الله بالآية التالية أن يتصدّقوا قبل أن يسألوا (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْهِ زُجُورًا كُمْ صَدَقَةٌ ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ) (المجادلة/ 12)، فامتثل القليل منهم، ومنهم الإمام علي (ع).. وقد وبخهم القرآن الكريم بقوله: (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ) (المجادلة/ 8). وقد أجاز للمؤمنين النجوى واشترط عليهم أن لا يكون تناجياً بالإثم والعدوان ومعصية الرسول وأن يكون تناجياً بالبر والتقوى، وجاء الأمر الإلهي مرة أخرى بالتقوى مذكراً بيوم الحشر والحساب.

إن المؤمن المتّقى لا يمكن أن يرضى بأن يؤتّى خذّ دينه وسيلة للعب والمزاج والهزل، ولا يمكن أن يرضى بأن يكون ولاة أمره من أولئك الذين لا يعيرون للدين التفاته أو أهمية تذكر، فجاء الخطاب للمتّقين الآخذين بعروة الإيمان.. قوله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَخَذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُورًا وَلَعِبًا مِنْ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ كُنتُمْ مُمْسِكِينَ) (المائدة/ 57). والتقوى في هذا المعنى إنّما تعني عدم السماح للفساق من الناس بتولي أمور الأمة الإسلامية وتدبير شؤونها، فالولاية التي من لوازمها التصرف في الشؤون الاجتماعية والنفسية والدينية للأمة لا يجوز أن تحتضنها وتحكم سيطرتها أيادي غير أمينة لا تملك ذرة في الأخلاق.. وقوله تعالى: (وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ كُنتُمْ مُمْسِكِينَ) بمنزلة التأكيد لقوله: (لَا تَتَخَذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُورًا وَلَعِبًا مِنْ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ) (المائدة/ 57)، وكان الخطاب موجّه إلى التزام صفة التقوى وعدم اتخاذ الفسقة من الناس أولياء يحكمون الناس بعيداً عن حكم الله سبحانه وتعالى..

يشغل بعض الناس في مجالسهم الخاصة والعامة وبالخوض في آيات الله من سب وشتم واستهزاء بخالق السماوات والأرض سبحانه وتعالى، وهذه الطيقة من الناس فقدت كل رادع، وأصبح ضميرها الذي ترجع إليه صخرة ميتة فقد الحياة، ولذلك نهى القرآن الكريم مجالسة هؤلاء الناس ما داموا يخوضون في آيات الله (وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرِ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ) * وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَلَكِنْ ذَكَرُوا لِأَعْلَانِهِمْ يَتَّقُونَ) (الأنعام/ 68-69)، وخطاب الآية موجّه إلى النبي (ص) ولكن يقصد به عموم المؤمنين، والأنبياء (عليهم السلام) كما نعلم معصومون من الوقوع في الأخطاء الشرعية كنسيان الحكم الإلهي ومخالفته (وَأِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرِ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ) (الأنعام/ 68)، فالمقصود: أيها المؤمن حتى لو غفلت عن ذكرنا بما أنساك الشيطان ثم ذكرت الله فلا تنهاون في القيام وترك المجلس الشيطاني، فإن المتقين لا يمكن أن يشاركوا هؤلاء الخائضين خوضهم في آيات الله.. وما على المتقين من حساب هؤلاء الخائضين شيء أمام الله تعالى... إنّها ذكرى ولعلّهم يتقون..

وخاطب القرآن الكريم الرسول محمد (ص) بقوله إِنَّهُ أَحَدُ الْمُرْسَلِينَ الَّذِينَ كَانُوا رِجَالًا مِنْ أَهْلِ الْقُرَى (أهل المدن) يخالطون الناس ويعرفونهم مع فرق متميز واحد وهو حمل الرسالة إلى البشر (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى أَفَلَا يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ) (يوسف/ 109)، وليست دعوة الرسول الكريم (ص) إِلَّا لِإِصْلَاحِ حَالِ النَّاسِ وَتَغْيِيرِهِمْ وَإِلْزَامِهِمْ صِفَةَ التَّقْوَى حَتَّى يَفْلِحُوا بِالْحَيَاةِ الْخَالِدَةِ وَالنَّعِيمِ الْمَقِيمِ.. والتأكيد على أَنَّ الْمُرْسَلِينَ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى إِشَارَةٌ وَاضِحَةٌ إِلَى أَنَّ الرِّسْلَ لَيْسُوا بِمَلَائِكَةٍ وَإِنَّ مَا هُمْ رِجَالٌ أَتَقِيَاءُ عَاشُوا أَقْوَامَهُمْ فَبِعَثْمِهِمْ سِيحَانَهُ وَتَعَالَى حَامِلِينَ رِسَالَتَهُ لِيُنْشِرُوا الْخَيْرَ وَالسَّعَادَةَ وَالطَّمَأْنِينَةَ عَلَى عَمُومِ الْبَشَرِ.. وَإِنَّ دَعْوَتَهُمْ إِنََّّمَا هِيَ التَّقْوَى وَلَيْسَ مَا وَرَاءَ التَّقْوَى إِلَّا مَا فِيهِ خَيْرُهُمْ وشمول سعادتهم.. ►

المصدر: كتاب الأخلاق القرآنية/ ج2

[1]- الأنفال: الزيادة على الشيء وتطلق على غنائم الحرب.